تأصيل قيم التسامح في العملية التربوية

قيس الجهضمي

ينطلق الكاتب علي أسعد وطفة في مقالته بمجلة التسامح «التربية على قيم التسامح» من أنّ العنف على تعدد مشاربه وسلوكيات أصحابه كان الوجه المضاد لتطور الحضارة الإنسانيّة، وأنّ مواجهة العنف هو المنطلق الاستراتيجي في اتجاه بناء السلام والأمن والحرية وتلك هي الشروط الأساسية لبناء الحضارة، لكن العنف لا يواجه بالعنف، وإنّما رفضه كما يرى كارل بوبر يجب أن ينبع من الأفراد أنفسهم قبل كل شيء، ويعول على الحكومات والدول في إدراك هذه الحقيقة ثم تأصيل قيم ثقافة التسامح في نفوس الصغار وقلوبهم ونبذ العنف، وأن تصبح هذه التربية كأولوية إنسانية واجتماعية، وستوفر عليها الكثير من تكاليف مواجهة العنف بأساليب العنف.

في مفهوم التسامح:

يعلن كثير من المفكرين عن وجود صعوبة كبيرة في تحديد مفهوم التسامح، لأن مفهوم التسامح يمثل جوهر الإنسان ومنطلقه، وتتجلى هذه الصعوبة في قول ريتشارد مكيون: «إذا لم تسألني عن ماهية التسامح فأنا أعرف هذه الماهية وإذا سألتني فأنا لا أعرف».. فالقواميس العربية لا تحيل إلى المعاني الحديثة للتسامح إذ تعني الجود والكرم كما هو في لسان العرب ومختار الصحاح وغيرها، وفي قاموس اللاروس الفرنسي: التسامح «tolerance» احترام حرية الآخر وطرق تفكيره وسلوكه وآرائه السياسية والدينية، أما في قاموس «انسيكلوبيديا بريتانيكا»: هو «السماح بحرية العقل أو الحكم على الآخرين».

أمّا من الناحية التاريخية فيعتقد الفلاسفة والمفكرون الغربيون أنّ فكرة التسامح مصدرها البروستانتية ويعود أصلها إلى جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٢م) في كتابه «رسالة في التسامح»، فمفهوم التسامح هو وليد حركة الإصلاح الديني بين القوى المتصارعه في القرن السادس عشر وتمّ تجاوزه عن طريق الاعتراف بالاختلاف في المعتقد ثمّ الفكر بوجه عام، كما يعد الفيلسوف الفرنسي فوليتر (١٧٧٩-١٦٩٤م) فيلسوف التسامح لأنّه ارتفع بالمفهوم إلى المفهوم المعاصر إذ يقول: (كلنا ضعفاء وميّالون لقانون الطبيعة والمبدأ الأول للطبيعة هو التنوع، وهذا يؤسس للتنوع في الحياة الإنسانية، وقبول هذا التنوع حق أساسي للوجود)، ففي عصر التنوير تأسست فكرة التسامح على مبدأ إنساني هو ألا وجود لحقيقة مطلقة مما أدى إلى الايمان بالحرية ومبدأ الاختلاف.

فالإنسان ليس شريرًا بطبعه إنّما هو شرير عندما تقتضي الحاجة لذلك، وقد بيّنت التجربة أنّ التعصب يوجد عند الفئات الاجتماعية المقهورة، وأنّ وسائل الاتصال والإعلام والأدب السائد مثل القصة والمسرحيات والكتب الدينية ساعدت على تنامي التعصب والعنف، يقول محمد أركون: «إنّ التسامح ليس فضيلة أساسية تمليها التعاليم الدينية والفلسفيّة العظيمة ولكنه بالأحرى يمثل استجابة للمتطلبات الاجتماعيّة والسياسية في أوقات الاضطرابات الايديولوجية الكبيرة»، فمهمة التسامح - كما يرى وطفة- هي تأمين التعايش المشترك في نسق التباين ومن ثمّ الحفاظ عليهما وحماية ما تنطويان عليه من قيم أساسية للوجود الإنساني.

في مفهوم العنف:

في البحث عن مفهوم العنف كتب هاكير: «إنّ العنف الخام هو الشكل المرئي والحر للعدوان ولا يأخذ كل عدوان صورة للعنف»، بمعنى أنّ العدوان دائمًا ما يأخذ شكل العنف لكن العنف لا يأخذ بالضرورة إرادة العدوان، فمثلا المربي حين يفرض على الطفل بعض القواعد والالتزامات بصورة عنيفة ليس بالضرورة أن يكون عدوانيًا إلا إذا اتضح أنّه أراد إيذاء الطفل فهنا العنف يكون عدوانيًا، لذا كتب فرويد في رسالته إلى باستور فيستر: «فنحن لا نستطيع أن نؤدي شيئا في واقع الأمر دون قليل من الإجرام»، معللا أنّ كثيرًا من النشاطات الإنسانية لا تتحقق إلا بوجود العنف ولو بالقليل.

بين الأنا والآخر:

يتحدد وجود الإنسان في اللحظة التي يتعامل فيها مع الآخر، والآخر- كما يعبر عنه الكاتب- في أكثر تجلياته النفسية حضورا يأخذ صورة كينونة إنسانية جامعة لمعاني الخوف والتحدي والخطر، ووجود المختلف يشكل خطرا على الأنا مع أنه قد لا يشكل أي خطر في الحقيقة، فكلما زادت رقعة الاختلاف بين الأنا والآخر زادت مساحة الخوف والقلق، بجانب هذا دائما ما يسعى الإنسان إلى إشباع إحساس التملك والسيطرة عن طريق سلب ملكية الآخر، ولإيجاد الحلول لهذا الصراع بين الأنا والآخر هو إشباع رغبات التملك والسيطرة لدى الطرفين سلميا أو جعلهما يتنازلان عن بعض رغباتهم عن قناعة تامة، فيكون قوام الحياة بينهما مبدأ العيش المشترك القائم على التسامح.

التربية على التسامح:

أثبتت التربية أنّها أداة فاعلة لمواجهة التسلط والعنف، يقول جونز كوزكزاك: «وأدركنا أن السيطرة على عقول الأطفال لم تكن الطريقة المثلى للتربية على الحرية، فللطفل - وباعتباره إنسانا- الحق في احترامه واحترام عالمه وتفكيره»، وقد جاء في البند ٢٩ من الإعلان العالمي لحقوق الطفل الذي أقره مجلس الأمم المتحدة ٢٠-١١-١٩٨٩م أن تربية الطفل يجب أن تركز اهتمامها على الآتي: ترسيخ احترام الحريات واحترام حقوق الإنسان في ذهن الطفل، إعداد الطفل إعدادا يؤهله لتحمل مسؤوليات الحياة في مجتمع حر.

إن الطريقة الأفضل لإعداد الأطفال ليصبحوا مواطنين مسؤولين عن المجتمع هي تنظيم المدارس وإعداد مناهجها مستقاة من قيم الديمقراطية كتعليمهم احترام حقوق الإنسان في الوسط المدرسي، وقد أكد غاندي على أن الأطفال لن يستطيعوا إدارة مدارسهم ما لم يستطيع الكبار إدارة حكوماتهم، إحياء لقيم الديمقراطية في كل شرائح المجتمع.

وعلى المدرسة تطهير نفسها من جميع الأفكار المناوئة لقيم التسامح والتي تهدد النظام الديمقراطي في الحياة، ويتجلى هذا التطهير في تحرير الأطفال من النظرة الدونية إلى الآخر وقبول الآخر مهما يكن على مبدأ الاختلاف، ويرى العديد من الكتاب أن القليل من العنف لا يضر أبدا بل ضروري ومهم ومن المستحيل إلغاء العنف نهائيا من حياتنا، فالعنف يمتزج بين نوعين وكثير ما يحدث الخلط بينهما، العدوانية وهي قوة الحياة، والإيذاء الذي يعبر عن قوة الموت، وعندما تساءل فيليب ميريو عن غاية المدرسة خرج بالنتيجة التالية: «إن غاية المدرسة هي بناء الإنسانية في الإنسان»، أي أنها هي من تتحمل مسؤولية تحقيق التواصل بين الناس.

دور المؤسسة المدرسية في تأصيل قيم التسامح:

إن على المؤسسة التربوية نبذ كل المفاهيم والقيم العرقية والتعصبية التي تسود في الذهنية العربية، وأن تمضي في تحرير مناهجها وممارساتها من مختلف أشكال التعصب الذي تعانيه، ثم تبني مناهج تربوية جديدة قادرة على تعزيز قيم التسامح والحب وحقوق الإنسان بين الأجيال وأفراد المجتمع بصورة عامة، لذا من الأهداف التي يرى الكاتب على المدرسة تحقيقها في مجال حقوق الإنسان: تصفية كل أشكال التفرقة والتميز القائمة على أساس الجنس أو الأصل الاجتماعي، وتأصيل قيم التسامح والسلام في البنية الذاتية للإنسان العربي، وتعزيز وعي الفرد بحقوق الإنسان وواجباته، هكذا ويجب أن تشمل التربية على حقوق الإنسان في المجالات المعرفية والسلوكية: فالمعرفية تساعد المتعلم على إدراك المفاهيم الأساسية لحقوق الإنسان ومبادئ التسامح، والسلوكي هو إحداث تحول في المواقف الأولية والسلوكيات العفوية، كما يجب عليها رفض سيادة بعض النماذج التربوية التي تتعارض مع روح التربية مثل النموذج القائم على نقل المعارف أو التلقين الذي يكون فيه المعلم هو المحور في العملية التعليمية.

qabuazan@gmail.com